

التوحيد في العبادة ... إشكالية المفهوم والمصداق -4

إن الطاعة ليست حداً منطقياً للعبادة ، وبمعنى آخر : لا يمكن اعتبار أن الطاعة لوحدها عبادة وإلا لم يبق أحد على وجه الأرض من المسلمين إلا وهو خارج عن الإسلام ، فنحن نطيع آباءنا ، وأمهاتنا وإخواننا الكبار ، وساداتنا ، وكبراءنا ، وحكامنا ، وقاداتنا في العسكر أو الوظائف المختلفة وهذه الطاعة تكون عبادة لهم ، ولكن القرآن لا يفترض هذا فقد أمرنا [الطاعة لرسوله مقرونة بطاعته كما في آيات عديدة منها :

قوله تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: ٣٢]

وقوله تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَٰمُوا أَنِّي نَزَّيْتُ إِلَيْكُمْ رَسُولًا مِّنْ لَّدُنِّي وَاللَّهُ عَلِيمٌ} [المائدة: ٩٢]

{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: ٤٦]

{قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي نَزَّيْتُ إِلَيْكُمْ مَّا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [النور: ٥٤]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَ أَنتُمْ تَسْمَعُونَ} [الأنفال: ٢٠]

بل وجاء الأمر من [ل طاعة الرسول بخصوصه كما في قوله تعالى : {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [النور: ٥٦]

ولم تكن الطاعة لرسول [فقط بل لكل ولي أمر ، ومن هو ولي الأمر ؟

كل بحسبه ، فمن يعتقد أن ولاة الأمر هم الحكام كما يراه إخواننا السنة فإنه يجب طاعتهم ، ومن يراه الأئمة كما هم الشيعة يجب طاعتهم ، وفي كلا الفرضين يجب طاعة غير الرسول ، فهل أن طاعة ولاة الأمر عبادة لهم ؟ كما في قوله تعالى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} النساء: ٥٩

وقد جاء في القرآن الكثير من الآيات التي فيها أمر للناس باتباع أشخاص كما في قصة هارون وطلبه من قومه أن يطيعوه :

{وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي} طه: ٩٠

وفي قصة عيسى عليه السلام قوله تعالى:

{إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ وَتُفَصِّلْ فِي السَّحَابِ بِرُوحِ الْقُدُسِ مِنِّي وَخُذْ الْحُكْمَ مِنِّي وَأَتِيَكَ الْمَلَايِكَةُ خُذْ هَذَا الصَّلَافَ الَّذِي يَتَّبِعُكَ فَاتَّبِعْهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَاقِي} آل عمران: ٥٥

اتبعوك يعني أطاعوك ونهجوا منهجك وطريقتك ولا يكون ذلك إلا بطاعتك .

وفي قصة إبراهيم إن أولى الناس به للذين اتبعوه بإطاعته كما في قوله تعالى :

{إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِالْبِرِّ هَاجِرُ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَلِئَامٌ مِمَّنْ هَاجَرُوا إِلَى اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَقَدْ خَلَّى أَبْنَاءَهُمْ فِي الدُّنْيَا مِمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ} آل عمران: ٦٨ والآيات في ذلك كثيرة .

وقد ورد في مقابل ذلك ما يدل على أن هناك طاعة منهي عنها كطاعة الشيطان كما في قوله تعالى :

{أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} (يس/60-61). لا تعبدوا الشيطان بمعنى لا تطيعوه .

{وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَفَاسَدْتُمْ الشَّيْطَانُ إِيَّاهُ لَا تُطِيعُونَ} [النساء: ٨٣]

وطاعة الكفار والمنافقين كما في قوله تعالى زجراً لنبيه {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [الأحزاب: ١]

وقوله تعالى : {فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِيعْ مِنْهُمْ أَثِمًا أَوْ كَفُورًا} [الانسان: ٢٤]

وطاعة المخلوق في معصية الخالق ولو كان الأبوين اللذين دعا القرآن إلى برهما :

{وَلَا تَجَاهِدَا الْوَالِدَيْنِ إِذَا نَادَاكَ ابْنُكَ بِمَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا تُطِيعُهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنْزَلَ إِلَيْنَا فِي هَذِهِ} [لقمان: ١٥]

وهناك طاعة لم يرد فيها أمر أو نهي فتكون جائزة وهذا ما تعارف عليه المسلمون ، من طاعة الرئيس والمدير في الدوائر الحكومية في مختلف الوظائف ولا يمكن لأحد ادعاء أن ذلك مما هو خارج الشرعية ، وهذه الطاعة مع أنها لم ترد بصورتها الاجتماعية في القرآن إلا أنه لا قائل بأنها تعدّ عبادة للمطاع من قبل المطيع .

ومعنى طاعة [] أن تمتثل أوامر ونواهيه، فهل أن جميع المسلمين السنة أو الشيعة اليوم يطيعون كل أوامر [] ونواهيه بحيث يصدق عليهم أنهم عبيد [] أو أن كثيراً منهم يطيعون أشخاصاً وأفراداً علاوة على الشيطان، لذا تجد الكثير من المسلمين اليوم ومن جميع الطوائف يسرحون ويرتعون في المهالك والملذات وهؤلاء خرجوا قطعاً عن طاعة [] ، فهل نقول عنهم أنهم عبدة لشهواتهم كما قال تعالى {أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَافِيًا} [الفرقان: ٢٤] وقوله أيضاً {أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ

عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَيْهِ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ لَإِيَّاهُ بَصَرَهُ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ
مِنْ بَعْدِ اللَّاسَةِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ { الجاثية: ٢٣

والخلاصة : أن الطاعة لوحدها لا تعد حداً منطقياً للعبادة وإلا لو اعتبرناها كذلك فإن الجميع لن
يكون عابداً .